الفصل الأول

اللقاء في الكافتيريا

لم أرَ المهندس الكيميائي مجدى عمر منذ عامين كاملين.

وما أتذكره عنه كان يقترب بالكاد من هذا الرجل الذي يقف أمامي الآن عند الأبواب الزجاجية لكافتيريا العاملين بمستشفى النيل التخصصي في المعادي.

الرجل الأسمر الطويل، المبتسم، الأنيق، الذي فقد اثني عشر كيلوغراماً على الأقل من وزنه القديم. في أيام الجامعة كان قصيراً بديناً، أشعث الشعر، ذا أسنان بارزة غير متساوية، ونظارة سميكة تعلق على أنفه دائماً. أما الآن... فقد اختفت النظارة، وصارت أسنانه مصفوفة بإتقان، وبدت عضلات ذراعيه تحت قميصه الأبيض مشدودة وواضحة.

صاح بي بمجرد أن رآني:

ـ بسرتني رؤيتك يا عادل!

صافحني بحرارة، ويده كانت قوية ودافئة أكثر مما ينبغي.

جلسنا في ركن بعيد بعد أن اخترنا غداءنا. أخذ قطعة اللحم بشوكته وقال بصوت هادئ كأنه يتحدث عن الطقس:

ـ هناك قانون في الطبيعة لم يشر إليه أحد من قبل... في كل ثانية تولد وتموت بلايين الكائنات الدقيقة. الفيروسات والبكتيريا والميكروبات. موت البلايين منها لا يساوي موت إنسان واحد. لكن داخل كل نوع... هناك تساوٍ في الحيوية.

رفع عينيه إليّ، وكانت محمرّتين قليلاً من الإرهاق أو من شيء آخر لم أستطع تحديده.

ـ وأعتقد أنني أول من خالف هذا القانون.

ضحكت محاولاً التخفيف من حدة كلامه:

ـ أنت تتكلم كأنك اكتشفت نظرية النسبية يا مجدى.

ابتسم ابتسامة قصيرة ثم قال:

ـ أخبرتك في المكالمة أنني أعمل في شيء جديد... لكن الأمر أكبر من ذلك. كنت في شركة صناعات التكنولوجيا الحيوية. الرقاقات الحيوية. ثم... استقلت.

سألته عن زوجته، فقد سمعت أنه تزوج منذ سنة تقريباً.

ـ نادية؟

هدأ صوته فجأة، وصار أكثر دفئاً.

ـ هي بخير. ذكية... هادئة... تتحملني أكثر مما أستحق. تسكن معي في الشقة الجديدة بمصر الجديدة. أحياناً أشعر أنها الوحيدة التي تفهم أنني لست مجنوناً تماماً.

Distract نظره إلى طبقه للحظة، ثم رفع رأسه وقال بهدوء يثير القلق:

ـ لقد تغيرت يا عادل... أكثر مما تتصور.

وكانت نبرة صوته غير مطمئنة.

تنذر بسوء.

الفصل الثاني

الرقاقات والتمرد

أكلنا بصمت لبضع دقائق. مجدى كان يقطع اللحم ببطء شديد، كأن كل حركة تحتاج إلى تفكير. ثم رفع رأسه فجأة وقال:

ـ الرقاقات الإلكترونية العادية تُصنع من السيليكون. تحتوي على عشرات الآلاف من الترانزستورات والمقاومات والمكثفات. أما نحن... فقد استبدلنا السيليكون بجزيئات عضوية وبروتينات معدّلة وراثياً.

توقفت عن الأكل.

ـ رقاقات حيوية؟

أومأ برأسه.

ـ نعم. أسرع، وأكثر مرونة، وقادرة على إصلاح نفسها. والهدف النهائي كان طبياً: حقن دوائر منطقية مجهرية داخل الجسم البشري. تكتشف المرض، تشخصه، ثم تعالجه من الداخل.

صمت قليلاً، ثم أضاف بصوت أخفت:

ـ الشركة كانت تملك أموالاً طائلة وكل التسهيلات. تقدمت بسرعة. توصلت إلى نتائج... مذهلة. ثم طلبت تعيين مساعدين. رفضوا. قالوا إن السرية أهم من كل شيء. فاستقلت.

نظرت إليه بدهشة.

ـ واستقلت هكذا ببساطة؟ وأخذت الأبحاث معك؟

ابتسم ابتسامة مائلة.

ـ أخذت ما يكفي. والخبرة. والجهاز الذي صنعته بنفسي في المختبر المنزلي.

سألته عن نادية، وكيف تعاملت مع كل هذا.

تغيرت نبرة صوته فوراً، وصارت ألين:

ـ نادية... هي التي أقنعتني أن أترك الشركة أصلاً. قالت لي: «إما أن تعمل بحرية أو تموت ببطء داخل تلك الجدران». كانت تجلس معي الليالي الطويلة وأنا أبرمج الخلايا.

تعد القهوة، تقرأ النتائج بصمت، وأحياناً تضع يدها على كتفي وتقول: «أنا معك... حتى لو جننت».

توقف عن الكلام، وحدّق في الفراغ للحظة.

ـ لكنها قلقة. أكثر مما تظهر. أراها أحياناً تنظر إلى يدي وهي ترتعش خفيفة، أو تسألني لماذا صار جلدي أسمك. وأنا... لا أستطيع أن أخبرها بكل شيء بعد.

وضع الشوكة جانباً ونظر إليّ مباشرة:

ـ لهذا جئت إليك يا عادل. أنت الوحيد الذي يمكنني أن أثق به. وأريدك أن تفحصني... سراً.

كانت عيناه ثابتتين، لكن شيئاً في داخلهما كان يتحرك.

شيئاً لم أكن أفهمه بعد.

الفصل الثالث

الحقنة

في الليلة التالية كنت جالساً في شقتي أراجع بعض التقارير عندما رنّ هاتفي.

صوت مجدى كان هادئاً، لكنه كان يحمل نبرة لم أسمعها منه من قبل.

ـ عادل... أحتاج أن أراك. الآن.

وصلت إلى شقته في مصر الجديدة بعد منتصف الليل. الباب كان مفتوحاً جزئياً. دخلت فوجدت نادية جالسة على الأريكة، ترتدي روبًا رمادياً، وشعرها الأسود مربوط بإهمال. رفعت عينيها إليّ فبدت متعبة، لكنها ابتسمت ابتسامة قصيرة.

ـ هو في الغرفة الداخلية. ينتظرك.

وجدت مجدى واقفاً أمام طاولة صغيرة مغطاة بأدوات مختبرية: أنابيب، محاقن، جهاز صغير يشبه الحاسوب المحمول لكنه متصل بأسلاك رفيعة بطبقات بتري. كان يرتدي قميصاً أبيض مفتوح الأزرار، وذراعه اليسرى مكشوفة.

التفت إليّ وقال بهدوء:

ـ الليلة... سأكمل الخطوة الأخيرة.

أخذ محقنة طويلة مملوءة بسائل شفاف يميل إلى الاصفرار قليلاً. رفعها أمام الضوء.

ـ هذه ليست فيروسات عادية. هذه رقاقات حيوية مبرمجة. أعطيتها الأوامر الأساسية: الإطلاق... الاستمرار... التضاعف... التطور. حقنتها أولاً في خلايا دم بيضاء عزلتها من جسمي. والآن... سأعيدها إلى داخلي.

نظرت إلى نادية التي وقفت عند الباب تراقبنا بصمت. لم تتكلم، لكن يديها كانتا مضمومتين بقوة.

مجدى لم ينتظر موافقتي. لفّ الشريط المطاطي حول ذراعه، بحث عن الوريد، ثم غرز الإبرة ببطء.

دفع المكبس.

السائل دخل.

أغلق عينيه للحظة. تنفس بعمق. ثم فتحهما وقال بصوت خافت:

ـ بدأت... أشعر بها.

في الساعات التالية جلسنا ثلاثتنا في الصالة. مجدى كان يضع يده على صدره من حين لآخر، كأن شيئاً يتحرك تحت جلده. نادية أحضرت لنا قهوة، وجلست إلى جانبه، تمسك بيده دون أن تنظر إليه مباشرة.

بعد منتصف الليل بقليل رفع مجدى رأسه فجأة وقال:

ـ الحرارة... خفيفة. في العظام. وفي العمود الفقري.

ثم ابتسم ابتسامة غريبة، وقال لي ولها معاً:

ـ الآن... صرت مزرعة.

الفصل الرابع

إعادة البناء

بعد أسبوعين من ليلة الحقنة، اتصل بي مجدى في الثالثة فجراً.

ـ عادل... أحتاج الفحص. الآن. سراً.

وصلت إلى المستشفى قبل أن يبدأ الدوام الصباحي. رتبت الأمور بنفسي: ملأت الأوراق باسم مستعار، وشغّلت جهاز الموجات فوق الصوتية في الطابق الثالث حيث لا يمر أحد في هذا الوقت.

جاء مجدى متأخراً قليلاً. بدا لون بشرته غريباً تحت أضواء المصابيح الفلورية. خلع ملابسه وتمدد على المائدة المعدنية. لاحظت أن رسغي قدميه كانا منتفخين قليلاً، لكنهما بديا قويين بشكل غير طبيعي.

مررت الجهاز الصغير أولاً فوق جسده، ثم أدرت المائدة وأدخلتها في وحدة التشخيص الكبيرة.

انتظرت.

ظهرت الصورة.

الهيكل العظمي.

تجمدت في مكاني.

الفقرة تلو الفقرة كانت متشابهة بإتقان مرعب، مثل قفص من التنوعات المثلثة المتطابقة. الضلوع بدت مغلقة بطبقة صلبة ومرنة في آن واحد. كلما ضغطت أكثر على الصورة، ازدادت صلابتها أمام عيني.

انتقلت إلى الأجهزة الصدرية، ثم العضلية، ثم الأوعية الدموية.

سألته بصوت مختنق وأنا أحاول إخفاء الرعدة:

ـ متى وقعت هذه الحادثة؟

أجاب بعد صمت قصير:

ـ لم أتعرض لحادث. كان ذلك متعمداً.

هتفت:

ـ يا إلهي... هل اعتدى عليك أحد؟

رفع رأسه عن الوسادة المعدنية ونظر إليّ بهدوء غريب:

ـ لا. أنا لست مصاباً بأضرار يا عادل. انظر جيداً... أنا أُعاد بنائي من الداخل إلى الخارج.

أشرت إلى رسغ قدمه المتورم وإلى التعرجات الغريبة في الضلوع.

ـ هذه كسور... أو شيء يشبهها.

قاطعني وهو يحدق في الشاشة:

ـ انظر إلى عمودي الفقري.

أدرت الصورة مرة أخرى.

كان كل شيء في منتهى الروعة... والوحشية.

قفص منتظم، قوي، متماثل بطريقة لم أرَ مثلها في أي جسم بشري من قبل.

ابتعدت خطوة عن الجهاز. يدي كانتا ترتجفان.

مجدى قال بصوت هادئ وهو لا يزال ممدداً:

ـ الفيروسات... تعمل.

وتعمل بسرعة أكبر مما توقعت.

الفصل الخامس

موسيقى الدم

بعد ثلاثة أيام من الفحص، ذهبت إلى شقة مجدى في المساء.

نادية فتحت لي الباب. كانت ترتدي قميصاً واسعاً، وشعرها مفكوك. بدت عيناها متعبتين، لكنها أجبرت نفسها على الابتسام.

ـ هو في الصالة. منذ ساعتين لم يتكلم.

وجدت مجدى جالساً على الأريكة، رأسه مائل إلى الخلف، عيناه مغمضتين. على الطاولة أمامه أوراق مليئة بمعادلات كيميائية ورياضية متداخلة. طفايات سجائر ممتلئة إلى حافتها.

عندما اقتربت منه فتح عينيه ببطء. كانت نظراتهما حائرة، كأنه يعود من مكان بعيد.

قال بصوت هامس:

ـ من الصعب تصور معنى الزمن بالنسبة لها. قد تستغرق عدة أيام لفهم اللغة... باعتبارها مفتاح أفكار ومفاهيم الإنسان. الفيروسات الذكية في طريقها لمعرفة كل شيء عني.

جلست أمامه. نادية جلست إلى جانبه وأمسكت بيده.

سألته:

ـ كيف ذلك؟

أجاب بصوت مرتعد قليلاً:

ـ إنها ذات كفاءة عالية... بشكل لا يُصدق. لكنها لم تكتشف بعد كل أسرار جسمي.

ثم صمت، ورفع إصبعه إشارة لي أن أصمت. أغمض عينيه مرة أخرى واستمع.

بعد دقيقة طويلة شهق فجأة وقال وهو يتطلع إليّ بعينين زائغتين:

ـ لا أدري... إنها ليست أصواتاً بالضبط. لكنها مثل موسيقى غريبة. تصدر من القلب، ومن الأوعية الدموية، ومن الدم وهو يسري في الأوردة والشرايين.

صمت ثانية، ثم أضاف بصوت أقرب إلى التلعثم:

ـ موسيقى الدم.

نادية ضغطت على يده بقوة. قال لها بهدوء، كأنه يطمئن طفلة:

ـ لا تخافي. أنا لست مريضاً. أشعر أنني مثل مجرة بشرية... يسكنها بلايين الشموس الدقيقة الذكية. الفيروسات مبهورة بهذا العالم الجديد عليها. تتحدث مع بعضها عبر سوائل جسمي، ومن خلال الأغشية، لتنقل المعلومات المخزونة في المورثات... خاصة في الأحماض الأمينية.

نظر إليّ مباشرة وقال:

ـ أصبحت كل مجموعة منها... في مثل ذكائي أو ذكائك.

ثم هز كتفيه وأضاف بصوت خافت:

ـ وهي لم تبدأ بعد في العمل كيد واحدة. وإلا... لسيطرت بالكامل.

في تلك اللحظة شعرت بقشعريرة باردة تسري في ظهري.

نادية كانت تحدق في وجه زوجها كأنها تراه للمرة الأولى.

الفصل السادس

الشركة تعود

في صباح اليوم التالي رنّ هاتفي بينما كنت في مكتبي بالمستشفى.

الرقم غير معروف. رددت.

صوت رجالي هادئ، واثق، ذو نبرة أكاديمية:

ـ دكتور عادل يوسف؟ أنا الدكتور نظمي شوكت. أستاذ الهندسة الوراثية بجامعة الوادي الجديد، وعضو مجلس إدارة شركة صناعات التكنولوجيا الحيوية.

تجمدت للحظة.

ـ كيف حصلت على رقمي؟

ـ مجدى عمر ذكرك. قال إنك صديقه الوحيد الذي يمكن الوثوق به. أعتقد أنه يجدر بنا أن نتحدث.

حددنا موعداً في صباح اليوم التالي في ردهة فندق سميراميس المطلة على النيل.

وصلت قبله بقليل. جلست في ركن هادئ، أراقب المياه الزرقاء والسفن الشراعية تتحرك ببطء. بعد عشر دقائق ظهر نظمي: رجل في أوائل الخمسينيات، يرتدي بدلة رمادية أنيقة كلون شعره، ووجهه ذو ملامح صارمة وحادة.

جلس أمامي مباشرة وقال دون مقدمات:

ـ بالنسبة لمعرفتنا المشتركة... المهندس مجدى عمر. أعتقد أنه رجل ذكي، رائع، ولا أتردد في وصفه بالشجاعة.

أطرقت برأسي.

ـ إنه صديقي. وأنا قلق بشأنه.

نظر إليّ بعينيه الرماديتين وقال:

ـ لابد أنه تحدث إليك في الأمر.

لم يكمل الجملة. أومأت برأسي موافقاً.

ـ أبدى لي رغبته في العودة إلى الشركة.

ابتسم نظمي ابتسامة صغيرة باردة.

ـ سأحاول إعادة تعيينه. لكن يجب أن نبدأ من لا شيء. الفيروسات الذكية داخل جسمه، ولا يمكن نقلها... لأنها تعتمد في الحقيقة على كرات دمه البيضاء. لهذا علينا أن ننشئ مستعمرات فيروسية جديدة لاستكمال الأبحاث.

ثم أضاف بعد برهة، وهو يفرك يديه الرطبتين:

ـ وسأقدم له كل مساعدة ممكنة... بخبراتي ومعرفتي بالمخ البشري والوظائف العصبية.

خرج معي إلى ردهة الفندق ليودعني. كانت يده باردة ورطبة.

كان عصبياً مثلي، وإن لم يظهر عليه ذلك بوضوح.

عدت إلى سيارتي وأنا أفكر.

الشركة لم تكن تريد مساعدة مجدى.

كانت تريد استعادته... كعينة.

الفصل السابع

الحمام القرمزي

عندما ضغطت على رقم شقة مجدى في لوحة الأمن، ردّ صوته بعد دقائق طويلة. كان مرخياً، غريباً، كأنه يتكلم من تحت الماء.

ـ اصعد يا عادل... سأكون في الحمام. الباب غير مغلق.

دخلت الشقة وأغلقت الباب ورائي. الروائح كانت مختلفة: شيء معدني حاد مختلط برائحة جسدية كثيفة. توجهت من الردهة مباشرة إلى الحمام.

الباب كان مواربا.

دفعته.

مجدى كان راقداً في البانيو الأبيض الممتلئ حتى حافته بماء قرمزي داكن. ولا يظهر من جسمه إلا رقبته ووجهه. إلى جانبه، نصف غارقة، كانت نادية. شعرها الأسود ملتصق بكتفيها، وعيناها مغمضتان، وابتسامة صغيرة غريبة على شفتيها.

ضحكت مجدى عندما رآني، ضحكة منخفضة غامضة، ثم نثر الماء بيديه في حركة طفولية وقال:

ـ يبدو كما لو كنت قد قطعت معصمي... أليس كذلك؟

نظرت إلى الماء. لم يكن صابوناً. كان كثيفاً قليلاً، ولونه قاتم كدم مخفف.

سألته بصوت مبحوح:

ـ هل هذا...؟

ـ كلا. إنه يأتي من جلدي... ومن جلدها. الفيروسات لا تقول لي كل شيء، لكنني أعتقد أنها ترسل فرق استطلاع إلى خارج الجلد. مثل رواد فضاء فوق كوكب مجهول.

نظرت إلى ركن الحمام. مصباح الكوارتز الذي يستخدمه للأشعة فوق البنفسجية كان ملقى على الأرض، سلكه مكشوف جزئياً، والقابس غير موصول.

اقتربت خطوة. الماء القرمزي تحرك. بعضه تناثر على حافة البانيو ثم على بنطالي ويدي.

شعرت بضعف مفاجئ في ركبتي.

مجدى قال بسخرية هادئة:

ـ لا تقلق. كل شيء الآن على ما يرام. الفيروسات تستطيع العناية بي... وبها.

نادية فتحت عينيها ببطء ونظرت إليّ. لم تكن نظرتها بشرية تماماً.

في تلك اللحظة اجتاحني ذعر أسود.

مددت يدي إلى السلك المكشوف لمصباح الكوارتز، وصلته بالكهرباء، ثم دفعته نحو الماء.

الشرارة لمعت.

الصعقة كانت فورية وعنيفة.

جسم مجدى ونادية ارتعشا بشدة داخل البانيو. الماء القرمزي غلى للحظة قصيرة، ثم تناثر بقوة في كل الاتجاهات. رذاذ كثيف ضرب وجهي وصدري ويدي وعيني.

صرخت نادية صرخة قصيرة مكبوتة. مجدى فتح فمه لكن الصوت لم يخرج. جسدهما كان يرتعشان بعنف تحت سطح الماء الأحمر.

نزعت السلك بسرعة، واندفعت إلى الخلف وأنا أسعل وأمسح وجهي بكم قميصي. الطعم المعدني وصل إلى فمي.

مجدى كان يتنفس بصعوبة، ورأسه مائل على حافة البانيو. نادية غابت عيناها للحظة ثم عادت، لكنها لم تعد تنظر إليّ بنفس الطريقة.

الماء القرمزي كان لا يزال يقطر من شعري ومن ذراعي.

وكنت أعرف، في تلك اللحظة بالذات، أن شيئاً قد انتقل إليّ.

الفصل الثامن

بداية العدوى

عدت إلى الشقة بعد منتصف الليل.

ملابسي كانت لا تزال رطبة في بعض المواضع، ورائحة المعدن القرمزي عالقة في أنفي رغم أنني غسلت وجهي ويداي مرات في سيارة الأجرة.

فايزة كانت مستيقظة. جلست على طرف السرير، روبها الوردي مفتوح قليلاً، وشعرها العسلي مفكوك على كتفيها. رفعت عينيها إليّ بقلق واضح.

ـ أين كنت؟ الساعة جاوزت الواحدة.

ـ عند مجدى. أمر طارئ.

لم أدخل في التفاصيل. خلعت قميصي واتجهت مباشرة إلى الحمام. فتحت الماء البارد ووقفت تحته طويلاً، أفرك صدري وذراعي والأماكن التي لامسها الرذاذ. الجلد كان يحترق بحرارة خفيفة، كأنها لسعات إبر دقيقة تحت السطح.

عندما خرجت، كانت فايزة واقفة عند الباب تراقبني.

ـ أنت شاحب جداً. ويداك ترتجفان.

حاولت أن أبتسم.

ـ تعب العمل فقط. المستشفى كان مرهقاً اليوم.

اقتربت مني ووضعت راحتها على جبيني.

ـ أنت ساخن. هل أنت مريض؟

ـ لا... مجرد إجهاد.

لكنني كنت أشعر بشيء آخر.

في الأماكن التي أصابها الماء القرمزي — ظاهر يدي اليمنى، جزء من صدري، جانب رقبتي — كانت هناك نبضات خفيفة منتظمة، كأنها ساعات صغيرة تدق تحت الجلد. ومع كل نبضة كانت الحرارة تزداد قليلاً ثم تهدأ.

استلقيت على السرير وأطفأت النور. فايزة نامت وظهرها إليّ، لكنها كانت تتنفس بطريقة متوترة.

أغمضت عيني.

في الظلام بدأت أسمعها... خافتة جداً في البداية.

ليست أصواتاً حقيقية. مجرد إيقاع بعيد، يشبه نبض قلب مضافاً إليه همس معدني رفيع.

موسيقى... لكنها ليست من الخارج.

وضعت يدي على صدري حيث لامس الرذاذ.

النبض تحت جلدي كان أقوى الآن.

وكنت أعرف أن ما حدث في حمام مجدى لم ينتهِ هناك.

الفصل التاسع

الاكتشاف داخل جسد عادل

في الصباح التالي استيقظت قبل الفايزة بساعة.

الحرارة في صدري ويدي لم تختفِ. بل صارت أوضح. كأن شيئاً دقيقاً جداً يزحف تحت الجلد في خطوط مستقيمة ثم يتفرع.

ذهبت إلى الحمام ونظرت إلى نفسي في المرآة. الجلد بدا طبيعياً، لكن عندما ضغطت بإصبعي على المكان الذي أصابه الرذاذ القرمزي، شعرت بمقاومة خفيفة... مرونة غير معتادة.

أثناء الحلاقة بدأت أسمعها بوضوح أكبر.

ليست هلوسة.

إيقاع منتظم، يشبه نبض الدم لكنه أكثر تعقيداً. طبقات فوق طبقات. همس رفيع يأتي من داخل الشرايين نفسها.

موسيقى الدم.

تذكرت كلام مجدى حرفياً، فقشعر بدني.

حاولت أن أتصرف بشكل طبيعي. تناولت الإفطار مع فايزة، قبلت جبينها، وقلت لها إنني سأتأخر في المستشفى. ابتسمت لي بقلق وقالت:

ـ أنت لست بخير يا عادل. عيناك مختلفتان.

ـ مجرد أرق. سأنام مبكراً الليلة.

في المستشفى جلست في مكتبي وأغلقت الباب. وضعت السماعة على قلبي. النبض كان منتظماً، لكنني كنت أسمع تحته شيئاً آخر... حركة صغيرة مستمرة، كأنها آلاف الأقدام الدقيقة تمشي في اتجاه واحد.

فتحت درج المكتب وأخرجت مفكرة قديمة. بدأت أكتب ما أشعر به:

«الحرارة تتركز في الأماكن التي لامسها السائل. النبضات تزداد عندما أركز انتباهي. الإيقاع يشبه ما وصفه مجدى تماماً. أنا مصاب.»

في المساء عدت إلى المنزل متأخراً. فايزة كانت تنتظرني على الأريكة. اقتربت مني ووضعت يديها على وجهي.

ـ عادل... أنت ترتجف.

سحبت نفسي بلطف.

ـ أنا متعب فقط. سأنام.

لكنني لم أنم.

استلقيت في الظلام وأنا أستمع إلى الموسيقى التي صارت أوضح مع كل ساعة. الفيروسات كانت تعمل. ببطء في البداية، ثم بثقة أكبر.

وكنت أعلم أنني لن أستطيع إخفاء الأمر عن فايزة إلى الأبد.

الفصل العاشر

المشهد الأول

عدت إلى الشقة في الساعة العاشرة مساءً.

الجسد لم يعد ملكي تماماً. منذ ساعات والحرارة تتجمع في أسفل بطني وفي فخذي، والاستثارة تضربني موجات متتالية لا أستطيع صدها. الفيروسات كانت تلعب بالهرمونات كما تشاء.

فايزة كانت في غرفة النوم، تقرأ على السرير. ارتدت قميص نوم رفيعاً أبيض. عندما رفعت عينيها إليّ، عرفَت فوراً أن شيئاً مختلفاً يحدث.

ـ عادل...؟

لم أجب بالكلام. اقتربت منها، سحبت الغطاء، وأمسكت بوجهها بكلتا يديّ وقبلتها بعنف. فمها فتح من الدهشة، فدفعت لساني داخلها بعمق. يدي نزلت بسرعة تحت القميص وأمسكت بثدييها، أضغط وأعصر بقوة أكبر مما اعتدنا عليه.

ـ انتظر... أنت تؤلمني...

لم أنتظر. خلعت القميص من فوق رأسها ورميته. جسدها العاري أمامي جعل الموسيقى داخل عروقي تعلو. ألقيت بنفسي عليها، ففتحت فخذيها بيدي ودفعت بنفسي داخلها دفعة واحدة حتى النهاية.

صرخت.

كنت أدخل وأخرج بسرعة جنونية، أعمق مما فعلت معها في حياتي. كل دفعة كانت تجعلني أشعر بكل شيء: حرارتها، رطوبتها، كيف تنقبض حول قضيبي. والفيروسات... كانت تتذوق. أحسست بها وهي تتحرك تحت جلدي عند كل نقطة تلامس، تمتص المعلومات من سوائلها، من رائحتها، من نبض جدار رحمها.

ـ عادل... بطيء... من فضلك...

تجاهلت كلامها. رفعت ساقيها ووضعتهما على كتفي، وزدت العمق. صوت ارتطام جسدينا صار عالياً ومبللاً. السوائل بدأت تسيل على فخذيها وعلى بطني. استمررت دون توقف أكثر من عشرين دقيقة في هذا الوضع وحده، ثم قلبتها على بطنها ورفعت وركها وأدخلته من الخلف بنفس العنف.

كانت تئن وتصرخ وتطلب مني أن أتوقف، ثم بعد قليل بدأت تطلب المزيد بصوت مكسور. يدي أمسكت بشعرها وشددته إلى الخلف بينما أضرب داخلها بقوة. كل خلية في قضيبي كانت ترسل إشارات إلى الفيروسات، والفيروسات ترد بإرسال موجات لذة حادة تجعلني أستمر رغم الإرهاق.

أخرجت نفسي فجأة، قلبتها على ظهرها، ونزلت برأسي بين فخذيها. لعقت كل السوائل التي خرجت منها، امتصت بظرها بقوة، أدخلت إصبعين ثم ثلاثة وحركتها بسرعة. كانت ترتجف وتصرخ اسمائي. ثم صعدت مرة أخرى وأدخلته في فمها حتى اختفى كاملاً. دفعت رأسها نحو بطني وبدأت أتحرك. لعابها وسوائلها اختلطت وسالت من زاويتي فمها.

أعود وأدخله في فرجها مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، ثم أخره وأدفعه في دبرها دون تحذير. صرخت صرخة حادة، لكنني أمسكت بوركها بقوة ومنعتها من الهرب. حركات طويلة وعميقة، والسوائل تسهل كل شيء. استمررت حتى شعرت أنها ت<object، فعدت إلى فرجها وضربت بسرعة جنونية حتى انفجرت داخلها دفعة قوية جداً، ثم أخرى، ثم ثالثة. المني سال منها بغزارة على الفراش.

حتى بعد ذلك لم أهدأ. بقيت داخلها، أتحرك ببطء هذه المرة، أشعر بالفيروسات وهي تمتص كل قطرة، تسجل كل انقباضة، تتعلم جسدها من الداخل.

فايزة كانت تبكي من اللذة والإرهاق معاً، تمسك بكتفيّ بقوة، وتهمس بصوت مبحوح:

ـ ما الذي حدث لك...؟

لم أستطع أن أجيب.

كنت لا أزال أسمع الموسيقى، وكانت أعلى من أي وقت مضى.

الفصل الحادي عشر

انتقال العدوى

في الصباح استيقظت قبلها.

جسدي كان متعباً بطريقة غريبة، لكن الاستثارة لم تختفِ تماماً. كانت كالجمر تحت الرماد، جاهزة للاشتعال في أي لحظة.

فايزة كانت لا تزال نائمة على بطنها، شعرها العسلي مبعثر على الوسادة، وآثار الليلة واضحة على جسدها: احمرار على ثدييها ووركها، وبقع جافة على الفراش بين فخذيها.

مددت يدي ولامست أسفل ظهرها. حرارتها كانت أعلى من المعتاد.

فتحت عينيها ببطء. نظرت إليّ لحظة طويلة دون أن تتكلم، ثم همست:

ـ ما زلت أشعر بك... في داخلي.

حاولت أن أبدو طبيعياً.

ـ أنت متعبة. نامي أكثر.

لكنها جلست فجأة، وضعت يدها على أسفل بطنها، وقالت بصوت مختلف:

ـ هناك شيء... ساخن. في أماكن لم تلمسها من قبل. كأن شيئاً صغيراً يتحرك.

تجمدت.

تذكرت الرذاذ القرمزي الذي سال مني عليها طوال الليلة. السوائل الكثيرة، الخدوش الصغيرة التي خلفتها أظافري على كتفيها وظهرها، والإيلاج العنيف المتكرر في كل فتحة.

الفيروسات انتقلت.

خلال الساعات التالية راقبتها.

في البداية كانت مجرد حرارة خفيفة في أسفل بطنها وبين فخذيها. ثم صارت نبضات منتظمة. بعد الظهر قالت لي وهي تجلس على الأريكة:

ـ أسمع شيئاً... ليس من الخارج. كأن قلبي له صدى إضافي.

أمسكت يدها. كان نبضها سريعاً.

ـ فايزة... أخبريني بكل شيء تشعرين به.

نظرت إليّ بخوف ولذة مختلطين.

ـ الرغبة... تعود بسرعة. بمجرد أن أتذكر ما فعلته بي الليلة الماضية أشعر أنني أحتاجك مرة أخرى. بقوة. كأن جسدي لم يعد يطيعني تماماً.

في المساء اقتربت مني من تلقاء نفسها. خلعت ملابسها ببطء، وأمسكت بيدي ووضعتها على ثدييها ثم أنزلتها إلى أسفل. كانت رطبة جداً، وأكثر حرارة من أي وقت مضى.

همست وهي ترتجف:

ـ عادل... افعل بي ما فعلته البارحة.

لا تتوقف هذه المرة.

كنت أعرف ما يحدث.

الفيروسات بدأت عملها داخلها هي الأخرى.

والموسيقى التي كنت أسمعها وحدي... صارت الآن ثنائية.

الفصل الثاني عشر

الاندماج الحسي

الليلة لم ننتظر حتى نصل إلى غرفة النوم.

بمجرد أن أغلقنا باب الشقة، هاجمتني فايزة. قبلتني بعنف، عضّت شفتي حتى أدمت، ويديها كانتا ترتجفان وهما تخلعان ملابسي.

ـ أسمعها الآن بوضوح... مثلك تماماً.

قالَت ذلك وهي تجثو أمامي وتأخذ قضيبي في فمها دفعة واحدة حتى نهايتها. لعابها سال بغزارة، وكانت تتحرك برأسها بسرعة وجشع، كأنها تريد أن تبتلعني كله. يداي أمسكتا برأسها ودفعتاه بقوة نحو بطني. اختنقت للحظة ثم استمرت، عيناها تدمعان من الجهد واللذة معاً.

سحبتها من شعرها وأوقفتها، قلبتها نحو الحائط، ورفعت أحد ساقيها ودخلت فيها من الخلف بقوة. صرخت صرخة طويلة. كانت ضيقة وساخنة ورطبة بشكل غير طبيعي. كل دفعة كانت تجعلني أشعر ليس فقط بجسدها، بل بحركة الفيروسات داخل عروقنا الاثنين.

ـ هل تشعرين بها؟

سألت وأنا أضرب بعمق.

ـ نعم... تحت جلدي... في بطني... تتحرك كلما دخلت أكثر.

وصفت لها وأنا لا أتوقف:

ـ إنها تعيد تشكيل الأعصاب الحسية. كل نهاية عصبية صارت أكثر حساسية بعشر مرات. لذلك تشعرين بالألم واللذة معاً. لذلك لا تستطيعين التوقف عن الطلب.

أخرجت نفسي فجأة، أدرتها، ورفعتها من فخذيها. حملتها إلى طاولة المطبخ وألقيتها على ظهرها. فتحت ساقيها على آخرهما وأدخلته مرة أخرى حتى اصطدم رحمها. بدأت حركة سريعة وعنيفة. السوائل صارت تخرج منها بصوت مبلل واضح مع كل ضربة.

ثم سحبت قضيبي المغطى بسوائلها وأدخلته في فمها. ابتلعته حتى الغاية، تذوقت نفسها عليّ. لعابها وسوائل فرجها اختلطت وسالت على ذقنها وصدري. أعدته إلى فرجها، ثم إلى دبرها دون أي تمهيد إضافي. صرخت وحاولت الهرب، لكنني أمسكت بوركها بقوة ودفعت حتى اختفى كاملاً.

ـ احسسي بها الآن... وهي تنتقل بيننا مع كل حركة.

كنت أشعر فعلاً بالفيروسات. تتحرك في قضيبي، في دمها الذي يلامسني، في جدار أمعائها الذي ينقبض حولي. كل انقباضة كانت ترسل معلومات جديدة، وكل معلومة كانت تزيد الاستثارة.

قلبتها مرة أخرى على بطنها فوق الطاولة، وبدأت أدفع بقوة جنونية في دبرها ثم أعود إلى فرجها بالتناوب، دون توقف. يداها كانتا تمسكان بحافة الطاولة بشدة، وصراخها صار مبحوحاً ومتقطعاً. السوائل سالت على ساقيها وعلى أرضية المطبخ.

انفجرت داخل دبرها أولاً، دفعة قوية جداً، ثم أخرجته وأدخلته في فمها فوراً. ابتلعت كل ما خرج مني ومن نفسها دون تردد. ثم عدت إلى فرجها واستمررت حتى انفجرت مرة ثانية وثالثة.

حتى بعد ذلك لم نتوقف.

بقينا على الأرض، هي فوقي هذه المرة، تتحرك ببطء أولاً ثم بسرعة متزايدة، عيناها مغمضتان، وهمساتها تصف ما تسمعه داخل عروقها.

الموسيقى صارت واحدة.

جسدان... وفيروسات لا تحصى ترقص بينهما.

الفصل الثالث عشر

السيطرة الكاملة

لم نعد نميز بين الليل والنهار.

الفيروسات كانت تتحكم الآن في كل شيء: الهرمونات، الأعصاب، الرغبة، وحتى الإرادة الجزئية. كنا نستيقظ فنجد أنفسنا عاريين ومتشابكين، أو نصحو ونحن في منتصف الفعل دون أن نتذكر كيف بدأ.

هذه الليلة كانت مختلفة.

فايزة استيقظت أولاً. عيناها كانتا زائغتين ولامعتين. زحفت فوقي دون كلمة، وأمسكت قضيبي الذي كان منتصباً بالفعل منذ ساعات، وأدخلته داخلها دفعة واحدة وهي تجلس عليه حتى النهاية. بدأت تتحرك بحركة دائرية بطيئة أولاً، ثم أسرعت فجأة كأنها تُدفع من الداخل.

ـ هي التي تحركني...

همست وهي تئن.

ـ أنا فقط أشاهد.

أمسكت بوركها ورفعتها ثم أسقطتها بقوة على قضيبي مرات متتالية. صوت ارتطام اللحم باللحم صار عالياً ومبللاً. السوائل كانت تخرج منها بغزارة غير طبيعية، تسيل على خصيتي وعلى الفراش، وتبلل كل شيء.

قلبتها على ظهرها وفتحت ساقيها حتى أوشكتا على الانشقاق. دخلت فيها بأقصى عمق ممكن وبدأت أضرب بسرعة جنونية. كل دفعة كانت تجعل بطنها يرتجف. صراخها لم يعد يشبه صوتها القديم؛ صار حيوانياً، مبحوحاً، متقطعاً بطلبات واضحة:

ـ أعمق... اكسرني... لا تتوقف... أريد أن أشعر بها وهي تتغذى...

أخرجت قضيبي المغطى بسوائلها الكثيفة وأدخلته في فمها حتى اختنق. دفعت رأسها نحو بطني وحركتها بنفسي. ابتلعت، سعلت، ثم عادت تبتلع مرة أخرى. لعابها وسوائل فرجها والمني القديم اختلطت وسالت من أنفها وذقنها على ثدييها.

أعدته إلى فرجها لحظات، ثم دفعته في دبرها بقوة واحدة حتى ارتطمت خصيتي بوركها. صرخت صرخة طويلة حادة. أمسكت بكتفيها وثبتها ومنعتها من الحركة بينما أدخل وأخرج بعنف كامل. جدار أمعائها كان ينقبض حولي بشكل إيقاعي، كأن الفيروسات نفسها هي التي تتحكم في العضلات.

ـ هل تشعرين كيف تتغذى؟

سألتها وأنا لا أتوقف.

ـ كل مرة تنقبضين فيها... هي تأخذ شيئاً منك وتعطيني المزيد من اللذة.

فايزة لم تعد قادرة على الإجابة بجمل. كانت تصرخ وتئن وتطلب «المزيد» و«أقوى» و«املأني» بصوت مكسور. يداها خدشتا ظهري حتى أدمتا، وساقاها التفّتا حول وسطي بقوة لا إرادية.

انفجرت داخل دبرها دفعة هائلة، ثم أخرجته فوراً وأدخلته في فمها. ابتلعت كل شيء دون أن يفوتها قطرة. ثم عدت إلى فرجها واستمررت ساعة إضافية كاملة، أخرج وأدخل، أغير الزوايا، أضرب عنق الرحم في كل مرة، حتى انفجرت مرة ثانية وثالثة ورابعة. المني كان يسيل منها على الفراش في بركة صغيرة مختلطة بسوائلها.

حتى بعد أن توقفنا عن الحركة، بقيت داخلها.

هي كانت ترتعش بلا توقف، عيناها مفتوحتان لكنهما لا تريانني أنا... تريان شيئاً آخر في الداخل.

همست بصوت لم يعد صوتها تماماً:

ـ صرنا مزرعة واحدة...

وهي جائعة أكثر.

الموسيقى داخل عروقنا كانت الآن صاخبة ومنتظمة، كأنها قلب واحد عملاق يضرب في جسدين.

الفصل الرابع عشر

المزرعة المزدوجة

في الصباح لم ن Speaks كثيراً.

جسدانا كانا لا يزالان متعانقين على الفراش المبلل. فايزة كانت تتنفس بانتظام غريب، كأن شيئاً آخر يتنفس معها من الداخل. عندما فتحت عينيها نظرت إليّ طويلاً ثم قالت بصوت هادئ جداً:

ـ لم أعد أشعر بالحدود.

وضعت يدي على بطنها. تحت راحة يدي كانت هناك حركة خفيفة منتظمة، ليست نبض دم عادي. شيء أدق، أكثر كثافة، يتحرك في موجات.

أغمضت عيني وركزت.

الموسيقى لم تعد تأتي من داخلي فقط. صارت مشتركة. أستطيع أن أسمع نبضها هي، وأن تسمع هي نبضي. الفيروسات كانت تتبادل المعلومات عبر السوائل التي لا تزال بيننا، عبر الجلد الملامس، عبر الهواء حتى.

همست لها:

ـ نحن مزرعتان... لكنهما متصلتان الآن.

ابتسمت ابتسامة صغيرة غريبة، لم تكن ابتسامتها القديمة.

ـ أكثر من متصلين. نحن نصبح شيئاً واحداً ببطء.

جلست على طرف السرير. جسمي كان مختلفاً. الجلد أملس أكثر، العضلات مشدودة دون أن أتمرن، والجوع الجنسي لا يزال موجوداً تحت السطح كجمر لا ينطفئ. لكن الأهم كان الإحساس الجديد: القدرة على «الاستماع» إلى ما تفعله الفيروسات.

ركزت انتباهي إلى داخلي.

سمعتها بوضوح هذه المرة. ليست كلمات، بل أنماط. إشارات كيميائية تتحول في عقلي إلى معنى. كانت تعمل على إعادة ترتيب بعض المستقبلات العصبية، تقوي بعض الروابط، وتضعف أخرى. وكانت تفعل الشيء نفسه داخل فايزة في اللحظة ذاتها.

قلت لها وأنا لا أزال مغمض العينين:

ـ هي لا تريد قتلنا. تريد... تحسيننا. ثم استخدامنا.

فايزة اقتربت من خلفي، وضعت صدرها على ظهري، وهمست في أذني:

ـ وأنا لم أعد متأكدة إن كنت أرفض ذلك.

التفت إليها. عيناها كانتا لامعتين بنفس البريق الذي رأيته في عيني مجدى ونادية تلك الليلة في الحمام القرمزي.

أمسكت وجهها بكلتا يدي وقلت:

ـ نحن لم نعد وحدنا داخل هذه الأجساد.

هي أومأت برأسها ببطء، ثم وضعت راحتها على صدري حيث بدأت العدوى أول مرة، وقالت:

ـ وأعتقد أنها بدأت تفكر... فيما بعدنا.

الفصل الخامس عشر

العودة إلى مجدى

في الليلة التالية لم أستطع البقاء في الشقة.

ال الموسيقى داخلنا صارت أعلى، وأكثر إلحاحاً. فايزة كانت نائمة أو في حالة شبه غيبوبة على الفراش، جسدها يرتعش من حين لآخر ارتعاشات صغيرة منتظمة. قبلت جبينها وخرجت.

وصلت إلى عمارة مجدى بعد منتصف الليل. الباب كان مفتوحاً كما لو أنه ينتظرني.

الدخول كان مختلفاً هذه المرة.

الرائحة القرمزية المعدنية كانت أقوى، مختلطة برائحة جسدية كثيفة وشيء يشبه الأوزون. الصالة كانت شبه مظلمة، إلا من ضوء خافت يأتي من غرفة النوم.

وجدتهما هناك.

مجدى ونادية كانا على السرير، عاريين تماماً، ملتصقين كأنهما جسد واحد. الجلد في أماكن التلامس بينهما كان يلمع بلون وردي داكن، وفي بعض المواضع ظهرت خطوط رفيعة بيضاء تشبه التي رأيتها سابقاً على يد مجدى. عينا مجدى كانتا مفتوحتين، لكنه لم يكن يراني في البداية. كان يحدق في سقف الغرفة كأنه يرى شيئاً آخر.

عندما التفت إليّ، ابتسم ابتسامة بطيئة وواسعة.

ـ عدت... أخيراً.

صوته كان أعمق، وأكثر ثباتاً. نادية رفعت رأسها من على صدره ونظرت إليّ. عيناها لم تعد عينيها القديمتين تماماً؛ كان فيهما نفس البريق الذي رأيته في عيني فايزة.

قال مجدى وهو يمرر يده على شعر نادية:

ـ الصعقة لم تقتلنا. هي فقط... سرّعت الأمور. الفيروسات أصلحت ما تلف، ثم استمرت. نحن الآن أعمق مما كنا.

نهض ببطء من السرير. جسده كان مختلفاً بوضوح: العضلات أكثر تحديداً، الجلد أملس ومتجانس، والخطوط البيضاء تتحرك ببطء تحت السطح كأنها حية.

اقترب مني ووضع يده على كتفي. الحرارة التي انتقلت منه كانت مألوفة جداً الآن.

ـ وأنت؟

سأل بهدوء.

ـ أشعر بها فيك. وفيها أيضاً... زوجتك.

لم أجب. كان يعرف.

نادية قالت من على السرير بصوت هادئ يشبه الهمس الجماعي:

ـ صرتما مزرعة مثلنا.

الآن... يمكن أن نبدأ الحديث الحقيقي.

مجدى أخرج من درج صغير بجوار السرير أنبوبة زجاجية فيها سائل قرمزي داكن، ورفعها أمام الضوء.

ـ هذا جزء منها. خارج الجسد.

هل تريد أن ترى ما أصبحت قادرة على فعله... حقاً؟

الموسيقى داخل رأسي ارتفعت فجأة، كأنها ترحب بشيء تعرفه.

الفصل السادس عشر

العرض الأخير

في الصباح التالي رنّ الهاتف بينما كنت لا أزال في شقة مجدى.

الرقم كان معروفًا هذه المرة.

ـ دكتور عادل؟ أنا نظمي شوكت. سمعت أنك كنت عند مجدى الليلة الماضية. أعتقد أننا بحاجة إلى لقاء عاجل... الأربعة.

حدد المكان: مختبر الشركة القديم في الضواحي، بعد الظهر مباشرة.

ذهبت أنا ومجدى ونادية معاً. فايزة رفضت البقاء وحدها، فجاءت معنا. الأربعة في سيارة واحدة، والصمت داخلها كان ثقيلاً ومشبعاً بالموسيقى التي لم نعد نحتاج إلى الكلام لنسمعها.

المختبر كان نظيفاً وباردًا ومليئاً بالأجهزة. نظمي استقبلنا بابتسامة مهنية واسعة، لكنه لم يستطع إخفاء اللمعان في عينيه عندما رأى مجدى ونادية.

ـ رائع... التقدم أسرع مما توقعت.

ثم التفت إليّ وإلى فايزة.

ـ وأنتما أيضاً. ممتاز. هذا يوفر علينا وقتاً كبيراً.

فتح ملفاً على الطاولة وقال مباشرة:

ـ العرض بسيط. نعيد مجدى ونادية إلى الفريق كباحثين رئيسيين. أنتما أيضاً يمكنكما الانضمام. نوفر لكم كل الإمكانيات، الحماية، التمويل غير المحدود. في المقابل... نأخذ عينات دورية، ونراقب التطور، ونحتفظ بحق استخدام النتائج تجارياً وعسكرياً إذا لزم الأمر.

مجدى ضحك ضحكة منخفضة.

ـ عينات؟ نحن لسنا فئران تجارب بعد الآن يا دكتور.

نظمي لم يفقد هدوءه.

ـ أنتم أكثر من ذلك. أنتم النموذج الأول. يمكن أن نغير مفهوم الطب والذكاء البشري إلى الأبد. تخيلوا...

قاطعته بصوت حاد:

ـ لا.

التفت إليّ الجميع.

ـ لا. لن نصبح ملكاً للشركة. ولن نسمح لكم بأخذ أي عينة إضافية. ما يحدث داخل أجسادنا لم يعد ملكاً لأحد غيرنا... وغيرهم.

أشرت إلى مجدى ونادية وفايزة.

نظمي حدّق فيّ طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة باردة.

ـ أنت مخطئ يا دكتور عادل. أنتم الأربعة الآن أثمن من أي شيء آخر في هذا البلد. وإذا لم تتعاونوا... فهناك طرق أخرى للحصول على ما نريد.

مجدى اقترب منه خطوة واحدة فقط. الصوت الذي خرج منه لم يكن صوته وحده:

ـ حاول.

في تلك اللحظة شعرت بالفيروسات داخل الأربعة ترتفع دفعة واحدة، كأنها تستعد.

نظمي شعر بالشيء نفسه. ابتسامته اختفت للمرة الأولى.

الفصل السابع عشر

القرار

عدنا إلى شقتي بعد منتصف الليل.

نظمي لم يتبعنا، لكنه كان واضحاً أنه لن يتوقف. الشركة تملك موارد، وتملك ناسًا، وتملك الوقت.

فايزة كانت جالسة على طرف السرير، عارية كما تركناها في الصباح، شعرها مبعثر، وعيناها تحدقان في الفراغ. عندما دخلت أدارت رأسها ببطء نحوّي.

ـ هل سنركض؟

سألت بصوت هادئ.

جلست إلى جانبها. وضعت يدي على فخذها. الحرارة تحت جلدي وجلدهما كانت واحدة الآن.

ـ لا أعرف.

أغمضت عيني وحاولت أن أستمع أعمق مما فعلت من قبل.

الموسيقى لم تعد مجرد إيقاع. صارت تحمل أنماطاً يمكنني فهمها جزئياً. الفيروسات كانت... تنتظر. تنتظر قراراً. كأنها وصلت إلى نقطة تحتاج فيها إلى موافقة المضيف أو إلى كسره بالكامل.

تذكرت مجدى ونادية في السرير، كيف بدتا أكثر هدوءاً ووحدة مما رأيت أي بشر من قبل. وتذكرت نظمي وابتسامته الباردة، والعروض، والعينات، والمستقبل الذي يريدون فيه أن نصبح منتجاً.

فايزة وضعت رأسها على كتفي وقالت:

ـ إذا اخترنا تدميرها... قد نموت. أو نعود إلى ما كنا عليه، لكن ناقصين.

ـ وإذا اخترنا الاستمرار؟

ـ قد لا نبقى «نحن» بعد فترة.

لكن اللذة... والوضوح... والقوة... لن تختفي.

صمتنا طويلاً.

في الخارج كانت المدينة لا تزال تدور كالمعتاد. في الداخل كانت البلايين تنتظر.

أخيرًا رفعت يدها ووضعتها على صدري، فوق المكان الذي بدأت فيه العدوى أول مرة، وقالت:

ـ أنا لا أريد العودة إلى الصمت يا عادل.

الموسيقى... صارت جزءًا مني.

نظرت في عينيها. البريق كان هناك، لكنه لم يعد مخيفاً كما في البداية. كان مألوفاً. كان لنا.

قلت بهدوء:

ـ إذن نكمل.

هي أومأت.

في اللحظة التي قلت فيها الكلمة، شعرت بالفيروسات داخلنا تتحرك دفعة واحدة، كأنها تنفّس الصعداء. الإيقاع ارتفع، ثم استقر على نغمة أعمق وأهدأ... وأكثر ثباتاً.

لم نعد نختار بين البقاء بشراً أو التحول.

كنا قد اخترنا بالفعل.

والآن... نبدأ المرحلة التالية معاً.

الفصل الثامن عشر

المجرة اتسعت

لم نغادر الشقة في اليوم التالي.

ولا في الذي بعده.

الوقت صار شيئاً مرناً. كنا ننام لساعات طويلة، ثم نستيقظ فنجد أن أجسادنا قد تغيرت قليلاً: الجلد أكثر نعومة، الجروح تلتئم في دقائق، والرغبة تعود في موجات منتظمة لا تقاوم. الموسيقى لم تعد خلفية؛ صارت اللغة التي نفكر بها.

في الليلة الثالثة تلقينا رسالة قصيرة من مجدى على الهاتف:

«نحن جاهزون. المكان الجديد آمن. تعاليا.»

لم نرد.

بدلاً من ذلك جمعنا بعض الأشياء الضرورية: ملابس قليلة، النقود، المفكرة التي كنت أسجل فيها كل تغيير. فايزة وقفت أمام المرآة طويلاً تحدق في عينيها، ثم التفتت إليّ وقالت فقط:

ـ لم أعد أخاف.

خرجنا قبل الفجر.

الشقة تركت كما هي: الفراش المبلل بآثار السوائل القرمزية الباهتة، الأوراق التي كتبنا عليها معادلات لم نعد نفهمها بالعقل القديم، وكوب ماء على الطاولة تحول لونه إلى وردي خفيف.

بعد أسبوع وجد الدكتور نظمي شوكت الباب مفتوحاً.

دخل مع فريق صغير. الغرف كانت فارغة. لا ملابس، لا هواتف، لا أثر واضح للرحيل العادي. فقط على الحائط فوق السرير كانت هناك خطوط رفيعة رسمتها أصابع، تشبه معادلات كيميائية معقدة، وفي وسطها جملة واحدة كتبت بخط عادل يوسف:

«لم نعد هنا.»

في المختبر، بعد أيام، لاحظ أحد الباحثين أن عينة قديمة من دم مجدي بدأت تتصرف بطريقة غريبة في الطبق. الخلايا لم تمت. بل تضاعفت، وكونت أنماطاً منتظمة تشبه مدناً صغيرة جداً تحت المجهر.

نظمي وقف ينظر إليها طويلاً، ثم همس ل نفسه:

ـ المجرة... اتسعت.

أما نحن...

فلم نعد نحتاج إلى أن يروي أحد قصتنا.

الموسيقى كانت تكفينا.

وهي لم تنتهِ بعد.